مُهِمَّة المصلح الاجتماعي

لحضرة صاحب السعادة العالم الجليل أحمد لطفي السيد باشا

مدير جامعة فؤاد الأول ، والعضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

٢ — اللغة :

ذكرت في حديثي الماضي أن مهمة المصلح الاجتماعي تنحصر في مساعدة الظواهر الاجتماعية على تطورها إلى أصلح وجه يقع عليه . واللغة من أهم الظواهر الاجتماعية ، لذلك كانت بعض موضوعنا ، ويسرني أن أتحدث في شأنها .

يتكلم الناس عندنا ، خواصهم وعوامهم على سواء ، بلغة عربية في مادتها ، نابية عن العربية في صورتها ، أهمل فيها ضبط الحركات في بناء الكلمات ونفيت منها بتاتا قواعد الإعراب . كذلك يتفق الخواص والعوام في القراءة : هم يقرأون الكتب والصحف فلا يرعون ضوابط بناء الكلمات ، يقفون على كل كلمة على حدتها ، فينفون الإعراب من قراءتهم كما نفوه من أحاديثهم العادية . ثم يختلف هؤلاء وهؤلاء عندما يكتبون . فالعوام ، وهم السواد الأعظم وسوف يظلون كذلك أبدا ، يكتبون في غالب الأمر كما يتكلمون ، وقد يشذ بعضهم أحيانا فيكتب لغة ليست بعربية فصيحة ولا عامية صريحة . وأما الخواص فإنهم يكتبون عربية صحيحة ، يكتبها أقلهم بسهولة جريا على عادة ألفوها ، وأكثرهم يجدون مشقة في كتابتها مع أنهم قد تعلموها ولكنهم لم يستعملوها كما يستعمل أهل كل لغة لغتهم في حاجاتهم اليومية .

اذا كانت اللغة ، كما نزعم ، من أهم المقومات لشخصية الأمة ، وكانت لغتنا على ما وصفت متعددة الأشكال عند أهلها ، متفاوتة في القوة والضعف في مواطن استعمالها ، شأنها هين على أبنائها إلى حد أنه اذا اتفق أن راعى أحدهم قواعدها في حديثه سخر منه سامعوه — على أن المعروف في البلاد المتمدنة أن يسخر من المخطئ في قواعد لغته لا من المصيب — اذا كان الأمر كذلك فماذا تكون حال هذه الشخصية القومية التي تدخل بنصيب كبير في مقوماتها لغةٌ تلك حالها ؟ وهل نرضى أن نرى صورة شخصيتنا في مرآة لغتنا على هذا النحو من اللون الباهت ومن التخاذل إلى حد أنه يصعب الحكم عليها بأنها شخصية محترمة لأمة كأمتنا رفيعة الجانب لها في تاريخ الانسانية مقام محمود ؟

لغتنا من حيث هي ظاهرة اجتماعية، محل للتطور . فعلى أى وضع سيتم هذا التطور؟ الحق أننا اذا تركنا التطور وشأنه من غير أن نسعى الى تحديد مجراه فلا شك فى أنه سيقصر أثره على اللغة العامية، ويكون حظ اللغة العربية الفصحى حظ مثيلاتها من اللغات القديمة .

لغتنا الفصحى ، لغة القرآن ، ما الت هى اللغة المعترف بها والتى ما فتئنا منذ نهضتنا الحاضرة نساعد فى تطورها وتوسيع ميادين استعمالها . ولكن هل وصلنا من أمرها بتلك الجهود الى شىء كبير ؟ هل تطورت فأوفت بحاجتنا منها سواء أكانت حاجة علمية أم أدبية أم فنية، أو هى تقهقرت عما كانت فى قديم الزمان حتى ليضطر أهل البيان عندنا الى أن يتخذوا مقياسا لفصاحة اللفظ ومقياسا لبلاغة العبارة ما كتبه الأدباء منذ أكثر من ألف عام ؟ وهل أضحى تعلمها يسيرا على أبنائنا كما يكون علم كل لغة يسيرا على أبنائها ، أو أن أبناءنا يجدون فى تعلم لغتنا من المشقة ما يربى على ما يجدونه فى تعلم اللغات الأجنبية التى لا تمت الى لغتنا بصلة ما ، مع أنهم يقضون نهارهم وليلهم فى بيئات لا تتكلم الا العربية ؟ وهل يقرأ أبناؤنا ، بعد أن تعلموا لغتنا، ما تقع عليه أبصارهم من الكتب قراءة صحيحة سواء أفهموا معانيها أم لم يفهموا، أو نحن ، كما قال قاسم، نفهم أولا من أجل أن نقرأ ؟ وهل الواقع أن جمهور الشعب ومعه طبقة المتعلمين والمتعلمات يفضلون أن يشهدوا قطعة مسرحية باللغة الفصحى على شهود قطعة مسرحية باللغة العامية ؟ وهل جمهور المستمعين للغناء يحب أن يسمع قطعة من الشعر الجيد أو هو يضجر منها ويؤثر عليها الأغانى العامية ؟ وبالجملة هل نحن نجموعنا نحب حقا لغتنا كما يحب غيرنا لغته ويعتز بها كما يعتز بجنسه ووطنه ، أم هل نحن جهلناها فعاديناها ، ومن جهل شيئا عاداه ؟ .

تلقاء هذه المسائل ليس لدينا الا إحدى اثنتين : إما أن نترك اللغة وشأنها لأحكام التطور الاجتماعى فيحل لغة أخرى بالزمان محل لغة القرآن كما جرى ذلك على سائر اللغات القديمة ، وإما أن نرد اللغة العامية الى اللغة الفصحى فنستعيد بذلك شبابها وتصير أهلا للبقاء . وذلك بأن نهيئ لتطور اللغة مجرى يجرى فيه بحيث لا يضر اللغة فى جوهرها ، ونعنى بذلك المساعدة على شيوعها وجعلها لغة الحديث اليومى كما هى لغة الكتابة ولغة جميع الطبقات ، لا لغة كتابة وخطابة فحسب ؟ إن لم يفعل ذلك الحريصون على بقاء اللغة العربية وسلامتها قبل فوات الوقت خرج من أيديهم هذا الإمكان، وتطورت اللغة الى ما لا يعلم مصيره الا الله.

مهمة المصلح الاجتماعى أن يساعد تطور اللغة فى ميدانين : ميدان اللغة الفصحى فى ذاتها وميدان تسهيل تعليمها .

أما فى شأن اللغة الفصحى فإنها على ثروتها الواسعة كل السعة لم تف بعد بحاجاتنا ، لأنه ليس بها من الأسماء ما نسمى به المسميات العلمية فى نهضتنا هذه ، وليس فيها من الأسماء ما نسمى به المسميات الجارية الواقعة تحت حواسنا فى هذا العصر . فلا بد من وضع

ذلك كله ، ولا بد من اتخاذ الوسيلة لضبط معانى الألفاظ الموجودة الآن فى اللغة والى جمعها جامعو اللغة العربية أو اللهجات العربية للقبائل المتعددة على أنها لغة واحدة فكثر فيها المشترك الذى يدل على عدة معان لا قرابة بينها ، وكثر فيها ما يسمونه المترادف تدل به عدة ألفاظ على معنى واحد . وكل ذلك اذا جاز فى زمن ما فانه لا يجوز فى زماننا هذا ، ولا بد إذن من تقييد كل لفظ بمعنى خاص به . وإننا نكرر أن المشترك والمترادف لا محل لهما الان عندنا إلا عن قلة وعن طريق الشذوذ .

أما فى شأن اللغة العامية فلا بد من إحلال اللغة المعربة محلها بالزمان ، وذلك بتسهيل تعليم اللغة الفصحى وإشاعتها إشاعة تقضى بعد قليل أو كثير من الأجيال على اللغة العامية .

لقد فكرت فى هذا الموضوع منذ اثنين وأربعين عاما فلم أجد لذلك إلا وسيلة واحدة وهى إلجاء الناس إلى أن يقرأوا مايقرون من الصحف قراءة صحيحة فى بناء الكلمات وفى إعرابها ، فنشرت رأيى هذا فى مجلة الموسوعات سنة ١٨٩٨ ، وهو يتلخص فى إدخال الشكل فى بنية الكلمة حتى لايخطاه نظر القارئ . فمتى قرأ الناس صحيحا عشرات من السنين اعتادوا نطق اللغة كما كان ينطقها أهلوها الأولون ، فيسهل بذلك تعلمها وتتم بذلك وحدتها . لم أك مبتدعا رأيى هذا ابتداعا . ولكنه هو الطريقة الطبيعية لرسم أصوات الحروف كما ينطق بها . فقد روى سيبويه عن الخليل أنه يرى أن الفتحة من الألف والكسرة من الياء ، والضمة من الواو ، وعلى هذا وضع الخليل الشكل على هذه الطريقة فرسم للفتحة ألفا وللكسرة ياء راجعة وللضمة واوا . ولقد اتبعت فى رأيى طريقة الخليل ولكن بإدخال هذه الحروف اللينة فى بنية الكلمة .

أثار هذا الرأى وقتئذ جدالا بين بعض الكتاب توصلت إلى صرفهم عنه ، لأنى آنست أن الوقت لم يحن بعد للإصلاح فى اللغة بل ولا فى غيرها إصلاحا يرضى به الناس . ففضل ذلك بقليل احتج بعض الصحف على الحكومة لأنها شرعت فى إنشاء السكك الزراعية ، وبعد ذلك بقليل احتجت تلك الصحف على الحكومة لأنها فكرت فى إقامة خزان أسوان .

فلما وليت وزارة المعارف سنة ١٩٢٨ عرضت هذا الرأى على مفتشى اللغة العربية فقالوا بعدم صلاحيته ولم يعرضوا رأيا آخر يجعل من رسم الحروف وسيلة ملزمة للناس أن يقرأوا المكتوب صحيحا فهموا معناه أم لم يفهموه ، كما هو الشأن فى جميع لغات العالم .

فلما ولى صديقى الدكتور بهى الدين بركات باشا وزارة المعارف سنة ١٩٣٨ قام بحركة من هذا النوع لم يمهله وقت ولايته تلك الوزارة لاستيعابها واستخراج نتيجتها .

والآن لابد للصلح الاجتماعى من عمل شىء فى هذا السبيل .

لست متمسكا بالطريقة التى اقترحتها منذ زمان بعيد . ولكنى راض بأية طريقة أخرى تؤدى الى الغاية التى ننشدها من توحيد لغة الكتابة ولغة الكلام فى الجملة ليسهل تعليمها من ناحية وليوجد حدّ مشترك من اللغة بين المتعلمين و بين غير المتعلمين .

كان بعض أصحابنا يرى رأيا آخر يذكرونه فى المجالس الخاصة بشىء من التردّد ، وعلى استحياء يقيمون الأدلة على صلاحه . ذلك الرأى هو إلغاء الإعراب دفعة واحدة و إلزام السكون أواخر الكلمات جميعا على سواء . وهذا الرأى مطعون فيه من وجهين :

أما الأول فإنه لا يحل من المسألة إلا بعضها دون البعض الآخر . لأن ضبط حركات الحروف ليس ضروريا فى الأعراب فحسب ، بل هو أشد ضرورة فى بنية الكلمة . وهذا الضبط من جوهر اللغة ، فإذا أهملنا الإعراب وأهملنا الشكل ولم نأت بطريقة تقوم مقامه ظل الناس يلفظون الكلمات على غير وجهها الصحيح كما هم الآن يفعلون .

وأما الوجه الثانى فإن فى هذا الرأى إهدارا لصورة اللغة العربية وقضاء على أهم مميزاتها. وذلك مالا نظن أحدا يرضاه ، خصوصا متى أمكن تسهيل تعليم اللغة وشيوعها من غير الالتجاء إلى العبث بسلامتها ومميزاتها .

هذان الاعتباران أراهما من الجدّ بمكان . ولكنى مع ذلك أتوسم أن عقليات الأجيال المستقبلة لا تكاد تبالى بمثل هذه الاعتبارات . فإن اللغة ،فى نهاية الأمر ، ليست إلا أداة للتفاهم وواسطة للتعليم . ومن شأن الأداة أن تكون ميسورة الحيازة للكافة . فإذا كانت هذه الأداة من العسر بحيث يفنى المرء شبابه فى تحصيلها فمتى يحصّل ما تؤدى اليه ؟ .

من أجل الاعتبارات التى ذكرتها أرى واجبا على المصلح الاجتماعى أن يعجل بتدبير الوسائل لتسهيل تعليم اللغة الفصحى ، ولإشاعتها فى جميع طبقات القارئين ، ولجعلها وافية بحاجات الحياة ، و إلا يكون قد ألقى بسلامتها فى تطوّرها إلى أيدى المصادفات ، يجرى عليها التطور كما جرى على مثيلاتها من اللغات القديمة .

أحمد لطفى السيد